عُــزيــر عليه السلام

دخل حديقَته فإذا هي مخضرَّة العود، وارفةُ الظلال، دانية القطوف، تَصْدحُ فيها البلابل، وتُطرَب الأطيار، فقضى ساعتَه متمليًا[1] بما فيها من جَلال، مستمتعاً بما تحتويه من شِيات الجمال، ثم ملأ سَلةً من العنب، وأخرى من التين، واصطحب مقداراً من الخبز، وامتطى حمارَه، وأخذ طريقه إلى المنزل.

وبينما هو يفكر في سر الكُون، وعظمة الوجود، ضلّ به السير، واضطرب أمامه الطريق، واشتبهت معالمُ الجهات، وإذا هو في قرية خَرِبة تُحدِّث عن قومٍ فرقتهم عُدْواء الدار[2]، واحتَبلَتْهُم حبول المنايا: رُسومٌ دارسة، وأطلال عافية، وعظام نَخرِة، وأجساد بالية.

فنزل عن حماره، وألقى بالسلتين إلى جواره، وربط الحمار، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه، ويسترجع قوَّته وفكْرَه؛ ثم طاب له المكان، واستراح إلى النسيم، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تُنشر، وتلك الأجساد وأنَّى تبعث؛ بعد أن أصبحت أدِيماً للأرض، وتراباً يجود عليها كل أسحم[3] هطال. ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم؛ ثم أغمِضت عيناه، وتخاذلت ركبتاه، ودخل في نوم مشتمل، وكأنه لحق بمن في القبور.

ومرت مائة عام مُجرمات، وهَرِمت أطفال وفنيت أعمار، وامّحت شعوب، وَتقوّضت صروح، وعُزَير مُلقى في مكَانه جسداً بلا روح! وعظامه ممزقة الأوصال، مهشَّمة المفاصل، حتى أذن الله أن يفصِل في قضية حارَ الناس في أمرها، واستعجم عليهم طريقُها، واختلفوا في تقريرها بحكم يَلْمَسونه بأيديهم، أو يقع تحت حِسهم وأبصارهم،

---

(١) متملياً: مستمتعاً.

(٢) العدواء: البيد.

(٣) أسحمت السماء: صَبَّت ماءها.

فجمع عظامه، وسوى خَلْقه، ونفخ فيه من رُوحه، فإذا هو قائم مكتمل الخلق، شديد البَضْعة، وإذا هو عُزير يقوم كأنه منتبِهٌ من نومه، يبحث عن حماره، ويفتِّش عن طعامه وشرابه!

وجاء المَلَكُ يسأله: أتظن كم لبثت في رَقْدتك يا عزير؟ قال ـ ولم يُروِّ ولم يفكر: لبثتُ يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث، ويجودك الطّل[1]، وتهْضِب[2] عليك السماء، وتمر عليك السافيات الذاريات، ومع هذه السنين الطويلة والأزمات المتعاقبة، فإن طعامَك ما زال سليماً، وشرابك لم يتغيَّر؛ ولكن انظر إلى حمارك تراه مُـفَرّقَ العظام، مُـتَـفصّي[3] الأعصاب، والله ـ جل شأنه ـ سَيُريك هذه العظام، كيف ينشرها ويحييها، ويبعث الحياة فيها؛ لِتُطَمْئِنَ نفسك بالبعث، ويزداد إيمانك بيوم الميعاد، ولِيَجْعَلَكَ آية للناس تخرجُهم من حنادِس[4] الشك، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان.

وتلفَّتَ عُزَير؛ فإذا حماره بأشراطه[5] وسماته، قائم على أربع، تجري فيه شرايين الحياة! فقال: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾[6].

وأخذ حمارَه، وشرع يتعرف الطريقَ إلى بيته، وقد تبدلت المعالم، وتحولت المنازل، وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حلم بعيد... حتى انتهى إلى منزله، فإذا عجوز ذَوَى عودُها، ووهَن عمودها؛ ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوَيْن[7]، وتعاقب الجديدين، وقد غَشِيَ بصرها، كانت هذه أمَتَهُ التي خلّفها في ربيع حياتها، وريّق شبابها.

سألها: أهذا منزل عُزير؟ قالت: نعم، هذا منزل عزير؛ وخنقتها العبرة، ثم جادت

---

(١) الطل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.
(٢) هضبت السماء: دام مطرها أياماً لا يقلع.
(٣) فَصَّ الشيء: فصله.
(٤) حنادس: جمع حِندِس: وهو الظلمة.
(٥) أشراط جمع شرط: وهو العلامة.
(٦) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٧) المَلَوان: الليل والنهار.

عيناها بدمع هَتُون[١]، وقالت: لقد ذهب عُزير، ونسيه الناسُ، وما رأيت من حقبة بعيدة مَنْ ذَكَر عُزيراً إلا الآن!

قال: أنا عُزير أماتني الله مائة عام، وها قد بعثني إلى الوجود، وردّني إلى الحياة؛ فاضطرب أمْرُ العجوز، وأنكرتْ عليه بادي الرأي دَعْوَاه، ثم قالت: إن عُزيراً كان رجلاً صالحاً، مستجاب الدعوة؛ ما تطلّب أمراً إلا تَقَبَّلَ منه الله، ولا تشفّع له في مريض إلا شفاهُ، فادعُ الله أن يُصحَّ جسمي، ويرد بصري. فدعا الله، فإذا هي ذات بصر جَديد، ووجه وضيء! فقبَّلت يديه ورجليه، ثم ذهبت من ساعتها إلى القوم من بني إسرائيل، وفيهم أبناؤه وأحفاده، منهم من بلغ الثمانين، ومنهم من أخذ بعنُق الخمسين، وفيهم أترابه، وقد بَرَى الدهر عظامهم، وأبلى أبراد شبابهم، وردَّهم على حافرتهم. وصاحت: إنَّ عُزيراً الذي فقدتموه منذ مائة عام قد ردَّه الله رجلاً غَضَّ الإهاب، يَخْطِر[٢] في مطارِف الشباب.

وطلع عليهمُ عزير رجلاً وافر المُنة، مستوي الخلق، شديد الأسر[٣]؛ فأنكروا صِفَته، وأعظموا فِرْيَتَهُ، ولكنهم أرادوا أن يفتنوه بالرأي، ويمتحنوه بالبرهان؛ قال أحد أبنائه: إن لأبي شامةً في كتفه كان يتميز بها، ويُعرف بصفتها. وكشفوا عن كتفه، فإذا العلامة كما عرفها أبناؤه، وكما سمع عنها أحفاده، ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم، وتستيقن نفوسهم، وتُمْحى خيوط الشك من بين جوانحهم، فقال كبير منهم: لقد حُدِّثنا أنه منذ زحف بختنصّر على بيت المقدس، ومن وقت أن أحرق التوراة، لم يكن على الأرض مَنْ يحفظ التوراة إلا قليلاً، ومنهم عُزير؛ فإن كنت عزيراً فاتْلُ علينا ما كنت تحفظه منها، فقرأها لهم لم يترك آية،ولم يُحرِّف جزءاً، ولم يَخْرِم لفظاً.

عند ذلك صافحوه مصدقين، وأقبلوا عليه مباركين، ولكنهم ـ لشقوتهم ـ ما ازدادوا إيماناً، بل ازدادوا كفراً، وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[٤].

---

(١) الهتون: الكثير القطر.
(٢) خَطَرَ: تبختر.
(٣) الأسر: شدة الخلق.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

صراع بين الحق والباطل

أخوان من بني إسرائيل تحدَّراً عن رجل واحد، وأرضعتهما أم واحدة، ولكنهما تباينا في طبعهما كما تتباين النَّبْتَة والنبتَة وأصلهما واحد، والزهرة والزهرة وكمهما متشابه؛ فهيوذا نشأ مؤمناً بربه، عارفاً بمقدار نفسه، عفيفاً كريماً، وقوراً، حليماً، أعرض عن الدنيا وخُدَعها، وغضَّ طرفه عن متاعها وزخرفها، وقُطْرُوس نشأ كافراً جاحداً، شحيحاً بخيلاً، كزَّ اليدين، غليظ الكبد، جافي الطبع.

وجَمعهما أبوهما على ثروة ضافية، ونعمة وافية، حتى إذا عَلِقَهُ حِمَامه، وطُوِيت من الحياة أيامه، اقتسما المال والعقار، وذهب كل منهما في إنفاقه مذهباً يُوائم طبعه، وينسجم مع نحيزته وهواه.

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلاً: يا ربِّ، إني سأُخرج مالي في مَرْضاتك، وسأبذله في طاعتك، شكْراً لنعمائك، وطمعاً في جنتك... وانطلقت كفاهُ بالإنفاق؛ فأعطى العافي[1]، وفكَّ العاني[2]، وحملَ الكَلّ[3]، وبذل المعروف وأعان على نوائب الدهر، حتى رَقّتْ حَاشِيَة حاله، ونَفِذَ مالهُ أو كاد، ولكن ظلَّ دهره هادىء الضمير، مُرْتاح الفؤاد، قانعاً بالكفاف، راضياً بقليل الزاد...

أمَّا قطروس فإنه مَا كاد يتسلم ماله، حتى احتواه، ووضع دونه المفاتيح والأغلاق، ثم حَرَم السائل، وَجَبَه القاصد، وأصمَّ أذنَيْه عن أنَةِ الفَقِير، وأغمضَ عيْنَيه عن رؤية المسكين؛ ثم ارْتَفَقَ حَائطين[4] أنْفَقَ عليهما عُمره، وأراق فيهما مَاء شبابه؛ أنبتهمَا كَرماً فأورَقا وأثمرا، وامتدَّ عَرْشُهمَا، وأورقَ ظلهما، ثم اتخذ بينهُما طريقاً

---

(١) العافي: كل طالب معروف.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الكَلُّ: أي اليتيم.

(٤) الحائط: البستان.

عَـبَّدها ومهدها، وأجرى بينهما الماء، وحَاطَـهُما بالنخيل، فكان رائيهما يحسب أن جنة الخلد قد نزلت إلى الأرض في أبهى حُـلَـلِهَا وأنفس حُـلاَها: ربْع[١] خصيب، وثمر قريب، وورق نَضِر، وماء خَصِر[٢] وزهر ينـفَح، وَوُرْق تصدح، حتى أصبحتَا نزهة السمع، وفتنة البصر.

ثم بسط الله في رزقه، وزاد في ماله، وبارك في ثمره، ورزقه بنين وأولاداً، زادوا في مظاهر نِعْمته، ورفاهية عيشته.

وتلك النعمَة التي ظلَّ يمرح في أبرادها، ويتقلب على جنبَاتها كان خليقاً به أن يتدبرَ صَانِعها ومُجْريهَا، ومانحها ومُعْطِيها، فيؤمن ويشكر، ويُذْعِنُ ويَحْمد، ولكن فريقاً من الناس تُطْغيهم النِّعْمة، ويغشِّي على بَصَائِرِهم النعِيم، ويظلون سادِرين[٣] في غلوائهم[٤]، ممعنين في إغفالهم، حتى يقْرَعهم الدهرُ بنابه، فإذا الغشَاوَة ترتفعُ، والحجُبُ تتمَزَّق.

كذلك كان قطروس، وما ازداد على نعمَة الله إلا كفْراناً، وما أثمرت عنه إلا طغياناً.

مرَّ عليه أخوهُ في خُلْقانه[٥] المرقّعة، وأسماله البالية، فاقتحمَه بعَيْنِه وازدراه في نفسه، ونالَ منه بقارس قوله:

أين مالك ونَشَبُك؟ أي فضتك وذَهَبك؟ لشتَّان ما بيني وبينك! أنتَ رقيق الحال، ممزَّق السِّربال، فاقد الأعوان، قليل الإخوان، وأما أنا فكما تراني، في بُلَهْنِيَةِ[٦] عَيْشٍ، وخَفْض أيام، ولي مَالٌ وبنون، وخَدَم وأعوان. تَعَالَ ادخل إلى جَنَّتِي، ترَ الكُروم المهدَّلة[٧]، والأعواد المخضرَّة، والمياهَ المتفجرَّة، والظلِّ الوارفِ، والغُصن العَاطف، والثمر الداني القطوف، ثم انظر إلى هذه الثمار، إنها تَرْبُو في كل عام، وتنتج وافراً في كل أوان، هو خير دائم ما أظنه يَنْفَدُ، وثوبٌ من النّعمَة ما أراهُ يَبْلَى.

---

(١) الرَّبع: الموضع ينزل فيه زمن الربيع.
(٢) خَصِرَ: استد برده.
(٣) سَدِرَ: لم يهتم ولم يبال ما صنع فهو سادر.
(٤) الغلواء: الغُلو، غلواء الشباب: أوله وحدته.
(٥) خُلقان جمع خَلَق: وهو الثوب البالي والجلد البالي.
(٦) البلهنية: الرخاء وسعة العيش.
(٧) هدل الشيء: أرسله إلى أسفل وأرخاه.

أمَّا السّاعَةُ التي تَـرْجُف دائماً بقيامها، والبَعْثُ الذي ما بَرِحْتَ تلهجُ بوقوعه وضرورة حُصولِه، فما أَحْسبه قولاً مَفْهوماً، أو سائغاً معقولاً، على أنني لو جريتُ في عِنَان فكرك، وخضَعْتُ لمفهوم قولك، فإنني لا بدَّ واجدٌ عند الله خيراً من هذه الجنة، وأكرمَ من هذه الثمار، ألاَ تراهُ قد آثرني في دُنْـياي بالخير؟! فما يمنعُ عندهُ أن يؤثرني في آخرتي بما هو أكرم عندَهُ، وأحسن لديه؟!

قال يهوذا: إنك لتكْفُر بالله، إذ تنكر عليه أن يبعَثك، أو يُحيِيَك بعد موتك فَيُحَاسبك، أفمن خَلَقَ الإنسان من سُلالةٍ من طين، ثم جعَلهُ نطفة في قرارٍ مكيـن، ثم أحَال النطفَةَ علقةً، ثمَّ صَيَّرَ العَلقة مُضْغَةً، ثم جعَلَ المضغة عظاماً، ثم كسا العِظام لحماً، ثم أصبح بعد ذلك إنساناً عجيب الأسرار. . . . أفمن مَرَّت به أدوارُ حياته على هذا النحو، يُعْجِزُ خالقهُ أن يبعَثه من مرقده، أو ينشره بعدَ موته؟!

لا، بل إن ذلك أهونُ عليه، وأقربُ لديه؛ ولكن على قلبك غلاف، وفي سَمْعِك وَقْرٌ[١]، وعلى عقلك حِجاب، فاشتبه عليك الأمرُ، ونَدَّ عنك الصواب.

ثم تُعيِّرُني بالفقر، وتكاثرني بالمال، وأنا في فقري أغنى منك في غناك فليست الثروة بما تُحْرِزُ من مال، أو تحويه من مستَغلات وعقار، مما تشغل به دائماً، ويتعَلق به أملك، بل الثروة إنما تقَدّر بقدر ما تزهد فيه من حاج، أو تستغني عنه من متاع وزخرف، وأن تلك الجواهر التي تَفخَرُ بها وتكاثرني على حِسابها، لا تَعْدُو أن تكون في نظري حصى يتألق، أو آلاً[٢] يلمع؛ وذلك البستانُ المونِقُ المُعجب، لا يجاوزُ في تقديري عُشْباً يطلعُ في الأرض ينمو ويترعرع، ثم ييبسُ ويصبحُ هشيماً[٣] تذروهُ الرياحُ، وذلك النفرُ الذين تَعْتدُّ بهم ليسوا إلا أعواناً لك على الشرِّ، يُطْغونك ويفْتِنونك، أمَّا أنا فحسبي بالله نصيراً، ووكيلاً.

والنعمَةُ كل النِّعْمة عندي أن أجد الكفاف حاضراً، وَالصحة قارهة، وأن أكون آمناً في سربي، خارجاً من سلطان ما بيني وبين الناس، ولأنْ أجوع يوماً فأدعو الله،

(١) وقرن أذنه وقراً: ثقلت أو صمت.
(٢) الآل: السراب.
(٣) الهشيم: الشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء.

وأشبع يوماً فأحمدهُ وأشكُره، خير لي من هذا المال الذي قد يُبْطِرني ويطغيني، كما أبطرك وأطغاك، وعسى ربي ـ كفاءً لما صبرتُ على قضائه، وما أنفقتُ من مالي على فقرائه ـ أن يكُون قد أعَدَّ لي جنة خيراً من جنَّتِك، ونعيماً مُقيماً خيراً من نعِيمِك.

أمَّا جنتَاك هاتانِ فقد لا تأمن عليهما عواديَ العَوَاصف، أو تقلبَ الأنواء[١]، فإذا الأوراق جافة، والكُرُوم كعَصْفٍ[٢] على الأرض مأكول، وهذا الماء النَّمِيرُ[٣] الذي يجري سلسلاً بَينهمَا، فيبعث الحياة، وينشرُ الموات، قد يغور في أعماق الأرض فتتطلبه بكل حيلة، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل، فإذا هو أعزُّ عليك من بيض الأنوق[٤].

وفرغ «يهوذا» من قوله، ثم ترك أخاهُ يُعْجَبُ ببستانه، ويمرحُ بين أزهاره ونَوَّاره.

وأصبح «قطروس» يوماً، وذهب كعادته إلى جَنَّتَيْه يستروح ـ كما اعتاد ـ النسيم، ويتَفَيَّأُ ظلال الكروم، فما راعه إلا أن رآهما أطلالاً بالية، ورسوماً عافية، ونبتاً مصوَّحاً[٥]، وعُرُوشاً محطمَّة، وأعواداً ملقاة.

فجفَّ حلقه، وغُصّ بريقه، وتساقطت خوافيه وقوادمه، ثم ذلَّتْ أخادِعه، ولان بعد جماحه، ودانَ بعد طماحه، وأخذ يقلب كفَّيْه حسرة على ما أنفقَ، ويقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ ﴾[٦].

---

(١) الأنواء جمع نوء: وهو النجم إذا مال للغروب وله معنى المطر الشديد.
(٢) العصف: ورق الزروع أكلته الدواب وداسته وأفنته.
(٣) النمير من الماء: الطيب الناجع في الري.
(٤) الأنوق: طائر يخفي بيضه كيلا يظفر به أحد.
(٥) مَصَحَ النبات مصوحاً: ولى لون زهره.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

أصحاب الجنة

تنفس الصباح، وهبت نسائمة هيِّنة ناعمة، وأقبل الشيخ وئيد الخطو، مبهور[1] النفس، أحنت ظهره السنون، وألانَ قنَاتهُ الإصباحُ، والإمساءُ، ولم يكد حاجب الشمس يبدو حتى كانَ يَدُقُّ بِعَصاهُ باب حديقته في ضَرَوان[2].

وكانت حديقةُ الشيخ جَنَّة دانيةُ القُطوف، فَوّاحةُ الزهر، قد رقت حَوَاشيها، وتأنَّقَ واشيها، وجرى الماء في جداولها عذباً سلسالاً، وتنقل النسيم بين خمائلها بليلاً دانياً، وعلى بساطها نَشر الربيع حُلله ومطارفه، وحاكَ أزهاره وأنواره؛ وفيما وراء ذلك أشجار موقرة بالثمار، وبقلٌ، وأعنابٌ، وزرعٌ، ونخيل، صِنْوانٌ وغير صِنْوان، فغدت مُتْعَة الناظر، ونزهة الخاطر، واتخذها النَّاسُ مثابة وأمناً، لهم تحت أشجارها ظلٌّ ومَقِيل، وبين أفيائِها سَمَرٌ وحديث.

ودار الشيخ في جنباتها، وتنقل بين زرابيها وأنماطها، فنشقَ من شذا الأزاهير، وامتلأت عينُه بداني الثمار وأصغت أذناه إلى تغريد البلابل وتطريب الأطيار، ثم ذهب إلى مُصَلاّهُ فسجد شاكراً لله أنعمه، راغباً إليه أن يجنّبه طغيانَ الغنى، وأن يُثْنيه عن فتنَة الدنيا ووسوسة الشيطان.

وتلك كانت عادةُ الشيخ مُصْبَح كل نهار، ثم يتعاقب الجديدان، وتتوالى عشيّات وأصائل، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها، وآذن حصادُها، فيدعو البستاني وأعوانه، ويُعْملونَ المناجل، ويقطفون الثمار، ثم يَفِدُ إليّه جماعاتُ الفقراء على ما عوّدهم من كل عام، فيعطيهم نصيبهم وافراً؛ هذا يملأ مِكْتَله، وذاك يحمل في ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل، وما تركه الحاصد، وما تناثر بين الأشجار رزْقاً حلالاً طيباً، وجرى على هذا في كل عام.

---

(١) البُهْرُ: تتابع النفس من الإعياء.

(٢) ضروان: بليد قرب صنعاء سمي باسم واد هو على طرفه.

obeikandl.com

لم يُطق أبناءُ الشيخ صبراً: أن رأوا مال أبيهم موزعاً بين الفقراء، وبستانه مستباحاً للمساكين، وأنهم والعافين والسائلين سواء، بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالاً، وأكثر بالجنة استمتاعاً.

قال قائل منهم: إنك يا أبي بما تنفق على الفقراء وتعطي، وما تخصهم به من بذْل ورِفْد، فتبْخَسُنا حقنا، وتضيق علينا في رزقنا.

وقال غيره: وإنك يا أبت لو مَضَيْتَ في شأنك هذا فإنك سوف لا تُبْقي مالاً ولا نَشَباً، وسوف لا تخلف ضَرْعاً ولا ثمراً، وسنغدو بعدك فقراء نمدّ الأيدي ونتكفف الناس.

وهمَّ ثالث بالكلام، فأشار إليه بالصمت، وأدار عينيه في وجوه الجميع وقال: ما أراكم إلا خاطئين في الوهم والتقدير، ما هذا المالُ الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به؟ ليس المال مالي أو مالكم، وهذا البستان ليس في حَوْزتي أو حَوْزتكم، إنما هو مالُ الله مَكَّنني فيه وآمنني عليه، على أن أُنفقه في أكْرَم وجوهه، وأنفعها لخلقه؛ فللفقراء والمساكين حَقُّهُم، ولأبناء السبيل والعافين نصيبُهم، وللطيور والبهائم طعامُهَا، وما فَضَل بعد ذلك فهو لي ولكم، ذلك ما فعلتُه وعَوَّدته الفقراء وأنفذت فيه حكم الله، والمال بهذا يَزكو[١]، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد، وتلك خطة درجتُ عليها شاباً طريراً[٢] والتزمتها رجلاً كَهلاً؛ فكيف بي أن أتركها اليوم شيخاً هِمّاً فانياً؟ على رِسْلِكم، فها أنتم أولاء ترون شَعْرِي قد اشتهب، وجسمي قد نحل، وعودِي قد ذَوَى، والأسقام قد أخذت سبيلها إليّ، ولن ألبث إلا قليلاً حتى ألقى الله، وإنكم سترثون البستان والمال والنَّعم والشاء، وأنتم بين خطتين؛ إن أنفقتم فإن الله وَعَدَ مُنْفِقاً خلفاً، وإن بخلتم فإن الله أنذر مُمْسِكاً تلفاً، وله فيكم أمر هو بالغة.

ولم يمكث الشيخ طويلاً حتى لَزِمته العلة، وألحَّ عليه السقم، ثم لفظ آخر أنفاسه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

ومضت الأيام سراعاً، وتهيأت الحديقة للجَنْي، ودنت أثمارُها للقطوف، واستشرف الفقراء لنصيبهم في الثمر، دأبهم في كل عام.

---

(١) يزكو: ينمو ويزيد.

(٢) الطرير: الذي نبت وطلع شاربه.

واجتمع الأبناء يديرون الرأي، ويُعِدُّون شأنهم للحصيد؛ قال قائلهم: لم يعُد بَعد اليوم في البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح الخمائل[١] مأوّى لقاصد أو ابن سبيل، ولكلٍّ نصيبُه يُثمِّره إذا شاء، ويخزن منه ما يشاء، إننا لو فعلنا ذلك فإن شأننا سيعلو، ومالنا سيزيد.

قال أوسطهم ـ وكان أقرب إلى أبيه نحيزة[٢] وَجِبِلّةً، وأدنى إلى الخير واصطناع الجميل ـ: إنكم تقدمون على أمر تظنونه خيراً لكم، ولكنه يحوي الشر في طياته، وتحسبونه نفعاً لكم، ولكنه سيقضي على بستانكم من جُذُوره. إنكم لو حرمتم الفقراء، وعطلتم حق المساكين، لا تأمنون منهم شرًّا، واعتداء، ويوشك ـ لو فعلتم ـ أن يعلنوها ثَورة وَعُـدْوَاناً؛ امنحوهم حَقْهم، واذهبوا مَذْهَب أبيكم في إرضائهم، وما فضل بعد ذلك فإن الله ينمِّيه، ويبارك فيه.

ولكنهم صاحوا في وجهه: لا تقترح شيئاً فيما لا تملك، وكُفّ عن نصائحك ولن تجد منا إلا آذاناً صماء!

قال: أما إذا رأيتم ألا تسمعوا لقولي، أو ترغبوا في نُصْحي، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد تردكم إلى الحق، وتعطف قلوبكم على الفقراء، ولكنهم ما استمعوا، ولا أجابوا.

وبيَّـتُوا أمرهم عشاءً أن يقوموا في عَمَاية الصبح، وقبل أن ينبلج عمودُ النهار ويفارق النوم مضاجع الفقراء، ويعمدوا إلى الحديقة يقطفون ثمارَها ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها، و﴿ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا[٣] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[٤].

وعلم الله سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وما انعقد عليه رأيهم من حِرْمان المسكين، وأكل نصيب السائل والمحروم، فأرسل إلى جَنتهم طائفاً[٥] قلع نَـبْتها وأسقط ثمرها، وجفف أوراقها وأعوادها.

---

(١) الخمائل جمع خميلة: الأرض السهلة الطيبة يشبه نبتها خمل القطيفة.
(٢) النحيزة: الطبيعة يقال هو كريم النحيزة.
(٣) ليصرمنها: يقطعون ثمرتها.
(٤) سورة القلم، الآية: ١٧.
(٥) طائف: نار أحرقتها ليلاً.

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون: أهذه جَنَّتنا، وقد تركناها بالأمس مُورِقةَ الشجر، جارية الماء، فَوَّاحَة الزهر، دانيَة القطوف؟ ما نظن أن هذه حديقتنا، وإننا لضالون.

قال أوسطهم: بل هي جنتكم حُرمتم منها قبل أن يُحرم الفقير، وجُوزيتم بأسوأ ما يُجزي لِحزٍ[1] شحيح ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

ولكن مَضى قدر، وبقي أسف، وليذوقوا عاقبة كيدهم ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

---

(١) لحز: شحيح بخيل.
(٢) سورة: القلم، الآيات: ٢٨ ـ ٣٢.
(٣) سورة: القلم، الآية: ٣٣.